الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

انتخاب بطريرك الأقباط — أسئلة وأجوبة توضح المشكلة القبطية — بين الصنعة والطبع — موقعة العلمين — اختيار لون الموت يدل على حيوية الذوق

انتخاب بطرك الأقباط (١)

البطريرك كلمة يونانية الأصل ، أو لاتينية الأصل . ومن الطريف أن نذكر أن كازيميرسكي يجعل البطريق (بالقاف) من اللاتينية ، ويجعل البطرك (بالكاف) من اليونانية ، برغم تقارب مدلول الكلمتين . وأنا أترك تحقيق هذه المسألة لحضرة الباحث المفضال الأب أنستاس ، فهو بها من الخبراء .

والذي يهمني هو أن أشرح لقراء الرسالة مشكلةً تثور اليوم في البيئات القبطية ، وشرحها لا يخلو من نفع ، لأنها تنطوي على دقائق اجتماعية وأخلاقية ، ولأن من الخير أن يعرف قراء المجلات الأسبوعية حقيقة ما يُنشر بلا شرح في الجرائد اليومية . فإن وقع في كلامي شيء من الخطأ فليتفضل بتصحيحه أحد المطّلعين من أفاضل الأقباط .

وأواجه الغرض فأقول : الأصل أن يُنتخَب البطرك من الرهبان ، وقد سارت الأمور على هذا الأصل في جميع العصور الخوالي ، ثم انحرفت عند انتخاب البطرك السابق ، فقد انتُخب وهو مطران ، وبانتخابه على ذلك الوصف ضاع أعظم حق من حقوق الرهبان .

والذين قرأوا ما نشره سعادة الأستاذ توفيق باشا دوس في جريدة لابورس يدركون أن المشكلة ستثار من جديد ، مشكلة المفاضلة بين الراهب والمطران في انتخاب الرئيس الديني الأقباط ... فما حجج الفريقين ؟

حجة القائلين بأن ينتخَب البطرك من الرهبان تقوم على أساس متين ، وهو سلامة الانتخاب من المؤثرات المالية ، لأن الرهبان لا يملكون شيئاً على الإطلاق ، فمن المستحيل أن يشتروا أصوات الناخبين ، وإذن يكون مرجع المفاضلة بين راهب وراهب هو الشهرة بالتقوى والورع والقنوت .

وحجة القائلين بأن ينتخب البطرك من المطارنة تقوم أيضاً على أساس ، فهم يرون أن المطارنة قد يعرفون من شؤون المجتمع ما لا يعرف الرهبان ، بغض النظر عن تعرّض الانتخاب لمؤثرات مالية أو اجتماعية .

وهنا يسأل القارئ عن المصادر التي تجعل المطارنة أغنياء ، بحيث يتناضلون بالقُوى المالية عند الانتخاب .

ونجيب بأن البلاد المصرية من الوجهة القبطية مقسّمة إلى أبرشيات « والأبرشية كلمة يونانية معناها الإقليم » ولكل أبرشية مطران ، فيقال : مطران المنوفية ، ومطران البحيرة ، ومطران جرجا ، ومطران أسيوط ، إلى آخر التقاسيم .

ولكن كيف يغتنى المطران ؟

يغتنى من « العوائد » وهي جمع عادة ، كما تُجمع حاجة على حوائج ، ولك أن تجعل مفردها عائدة ، إن تناسيتَ العُرف ، وهو من أهم الأسندة اللغوية . فما تلك العوائد ؟

حين يتلطف المطران بزيارة أحد البيوت يكون على أهل ذلك البيت أن يتلطفوا بتقديم « العادة » وهي مبلغ من المال يقلّ أو يكثر تبعاً لقدرة أهل البيت ، فيكون جنيهاً أو جنيهين ، وقد يصل إلى عشرين . ومن هذه العوائد تتكون ثروة المطران ، وهي ثروة مستورة لا تتعرض لرقيب ولا حسيب ، وإن كان المفهوم أنها تُجمع لإسعاف المرضى ومواساة المحتاجين ، وهي بالفعل مصدر خير لأولئك وهؤلاء .

بعد هذا الشرح نفهم كيف يخاف الراهب صولة المطران عند الانتخاب ، فالراهب يتقدم بالدين ، والمطران يتقدم بالدين والمال . وقد سمعت أن للمال سلطاناً على أصوات الناخبين ، وسمعت أيضاً أنه يزيد الأتقياء جلالاً إلى جلال . وهذا وذاك يؤكدان خوف الراهب من مناضلة المطران .

أسئلة وأجوبة

س — هل من الحتم أن ينتخَب بطرك الأقباط من هيئة دينية ؟

(١) لاحظت أن في الأقباط أنفسهم من يجهلون هذه المسألة الدقيقة ، فرأيت أن أشرحها بإيجاز وعدل

أهداف الرسالة الخاصة

في سبيل الوحدة العربية والثقافة العربية ، ستصدر الرسالة عدداً خاصاً بكل قطر من أقطار العروبة ، ينوه بفضله ويعرف بأهله . وستبدأ بعدد العراق . والمرجو من أدباء كل قطر أن يعاونوا الرسالة على أداء هذا الواجب بإرسال ما يستطيعون من الوثائق والمقالات والصور

ج — يجوز انتخابه من هيئة مدنية إذا قلّت الصلاحية لهذا المنصب فى الهيئات الدينية ، لأن الغرض هو إقامة راعٍ موصوف بالصدق والعدل ، ولو كان من المدنيين

س — هل فكّر أقباط مصر قبل اليوم فى انتخاب بطرك من الهيئة المدنية ؟

ج — بعد موت البطرك الأسبق كان من بين المرشحين لهذا المنصب رجلٌ مدنيٌّ هو الأستاذ سابا حبشى ؛ ويقال إنه نال كثيراً من الأصوات ؛ وهذا يدل على استعداد الأقباط لتشجيع العقلية المدنية فى الحياة الدينية

س — إذا توفرت الشروط فى الرجل المدنى ، فما الوجب لإيثار الرجل الدينى ؟

ج — يرى الأقباط أن منصب البطرك هو مصدر الحياة للدير ، فمن الخير أن تبقى لسكان الديارات آمال فى السيطرة الروحية على الجمهور القبطى ، وهى تُعرَّض للزعزعة إن ضاع منهم ذلك المنصب المرموق

س — وما الخطر من زعزعة مركز الدير ؟

ج — الخطر عظيم ، لأن الدير هو أكبر الخصائص فى المسيحية ؛ وضعضعة الدير تضعضع هيبة الرهبان

س — وما الوجب للابقاء على الرهبانية ؟

ج — الرهبانية مفروضة على البطرك ، ولو انتُخب من بين المدنيين

س — ألا تظنّ أن رهبنة المدنىّ أرقُّ وألطف ؟

ج — أقباط مصر يقولون بغير ذلك ، وهم يرون أن الرهبنة لا توصف بالرقة ولا باللطف ، وإنما توصف بالتقشف والزهد والقنوت

س — هل ترى أن البطرك القادم من سجن الدير يصلح لمقابلة الوزراء والسفراء ؟

ج — أقباط مصر لا يطلبون البطرك لمقابلة الوزراء والسفراء ، وإنما يطلبونه لمواساة اليتامى وهداية الأشقياء ، ولا يكون كذلك إلا حين تغلب عليه الهيبة الدينية

س — وإذا صَلَح الرجل المدنى لتأدية هاتين الوظيفتين ؟

ج — يكون أصلح الرجال على شرط أن ينتخَب من طريق لا تعترضه الشبهات

س — وما الشبهات التى تعترض ذلك الطريق ؟

ج — هى الشبهات التى ألمتُ إليها فى مطلع هذا الحديث

أما بعد فهذه صورة لما يعتلج فى صدور أقباط مصر بعد موت البطرك ، وإنى لأرجو أن يُكتبَ لهم التوفيق فى اختيار البطرك الجديد ، فهم مواطنون أعزاء ، واطمئنانهم إلى رياستهم الدينية يقع من أنفسنا موقع الجذل والارتياح

وسبحان من لا يقع فى مُلكه إلا ما يريد

بين الصنعة والطبع

إذا كتبت خطاباً فى المساء فاتركه بلا تظريف ، لتسهُل مراجعته فى الصباح ، ولتبقى الفرصة للحذف منه أو الإضافة إليه ، فمن المؤكد أن للرأى موجات تختلف باختلاف الأوقات . وقد تُنكر فى بياض الصبح ، بعض ما كتبت فى سواد الليل . وأنت عن تموُّجات رأيك مسئول

كذلك أصنع فى خطاباتى ومقالاتى لهذا العهد ، ولم أكن أصنع ذلك من قبل . وإن زمناً يكفُّ من جُموحى لهو ألأم الأزمان!

ما كنت أعرف الفرق بين التسويد والتبييض ، ولا كنت أستبيح معاونة الصنعة على مغالبة الطبع ، وكنت أعجب حين أسمع أن فى الكتّاب من ينسخ مقاله مرات قبل أن يطمئن إلى صلاحيته لمواجهة القراء

كان رأيى أن جري القلم فى القرطاس هو جرى الجواد فى الميدان . . . وللقلم أن يتلفت قبل إصابة الهدف ، إن كان للجواد أن يتلفت قبل بلوغ الغرض . . . ومن المحال أن يتلفت الجواد حين ينطلق فى ميدان السباق ، أو ميدان القتال

وهذا المذهب فى رياضة القلم هو الذى عرَّضنى لكثير من الجراح ، لأنى لا أملك صده حين ينطلق ، وهل يملك الجواد مجانبة العثرات حين ينطلق ؟

فما بال الأقدار تروضنى بعد الجموح ، وتفرض على أن أتلفّت ذات اليمين وذات الشمال وأنا أجرى فى ميدان البيان ؟

وما هذا الذى أعانى من زمانى ؟

أليس من المزعج أن أصبح من مخاطر القلم فى أمان ، لأن الظروف توجب أن يراعى قلمى أشياء لا يراعيها الجواد حين ينطلق فى الميدان ؟

وما قيمة الحياة الأدبية إذا خلت من المخاطر والمهالك والحتوف ؟

أنا لا أعدّ الكاتب فارساً إلا إذا استطاع بكل سطر ، أو بكل حرف ، أن يعرّض قراءه إلى الاشتباك فى حروب مع المعانى والآراء والأهواء

فأين أنا مما أريد ؟

وأين الفرص التي تسمح بأن أجرّد من قلمي مِشرطاً يرفع الغشاوة عن أعين أبناء الزمان ؟

أنا اليوم أضمن السلامة من جراثر قلمي ، كارهاً غير طائع ، لأن النظام في هذه الأيام يصدّ الأقلام عن عنت الجروح والطغيان قلمي

كيف مرّت شهور بلا جراح يُدميها سنانُك ؟

وكيف أمِنتُ شرّك ، ونجوت من طغيانك ؟

كيف وكيف ؟؟

بيني وبينك ميعاد وميثاق ، والأحرار لا يخلفون المواعيد ، ولا ينقضون المواثيق

موقعة العلمين

العَلَمين اسم بقعة تقع في الطريق بين الأسكندرية ومرسى مطروح ، وهي مثنّى عَلَم ، وقد صارت بفضل حرب الصحراء الغربية أشهر من نار على عَلَم أو على عَلَمين !

والذي يراجع أخبار الصيال بين قوات الحلفاء وقوات المحور في الصحراء يعرف أن تلك القوات لم تقف وقفةً أطول من وقفتها في العلمين ، فهل كانت المقادير أرادت أن يكون لتلك التسمية هذا المصير فتكون تلك البقعة مكان الصراع بين العَلَم المهاجم والعَلَم المدافع ؟

اللهم حوالَيْنا ولا علينا ! !

ألوان الموت [1]

لك أن تقول ألوان الموت ، كما تقول ألوان الطعام وأصناف الشراب ، ومن حقك أن تختار لون الموت ، لأنه فنٌّ من الفنون ، أو صنفٌ من الصنوف ، أو « ضربٌ » من الضروب ، ولعل من واجبك أن تفكر في اختيار لون الموت ، لأن ذلك يشهد بأنك من الأحياء . وهل يفاضل المرء بين لون ولون إلا وهو في حيوية ذوقية أو روحية تضيفه إلى أكابر الفنانين ؟

ولتوضيح هذا المعنى أسوق الحادثة الآتية ، وقد وقعت في مساء اليوم السادس من هذا الشهر الميمون :

قُبَيْل الغروب هبّت عاصفة عنيفة ، عاصفةٌ كادت تنقل إلى داري جميع رمال الصحراء ، جزاء بما صنعتُ من التغنّي بإشراف داري على الصحراء !

وفي ثورة تلك العاصفة يترنم الهتّاف ، فأسمع صوت المسيو دي كومنين يدعوني إلى سهرة تدور فيها أكواب الحديث ، وهو لا يقدّم لأضيافه غير أكواب الحديث ، لأنّ العقل نهاه عن الشراب قبل أن ينهاه الطبيب

وما كادت العاصفة تسكن حتى سلكتُ الطريق إلى ذلك الصديق ، وهو طريقٌ لا يسلكه عابرٌ في ليلة ظلماء إلا إذا كان على ميعاد مع حبيب

كان المسيو دي كومنين في توحد الليث ، فقد قضت ظلمات الأيام الأخيرة بأن يقرّ الناس في بيوتهم ، فلا يسمر صديق مع صديق ... ولا تسأل كيف طابت نفسي حين عرفتُ أنني السمير الوحيد في ذلك المساء ، مع رجلٍ صِيغَ روحه من لباب الضياء

كانت غابة الليسيه في تلك الليلة تكابد الشوق إلى من ينتقل بين أشجارها من وقت إلى وقت ، ليُشعرها بأن في الوجود أرواحاً لم تشغلها مزعجات الحوادث عن الاستماع للأغاريد المطوية في ضمير الخفيف ... وهل تصمت أشجار مصر عن التناجي بالخفيف في أي زمان ؟

تحدثنا بجانب كل شجرة ، وسلّمنا على كل مكان ، حتى المكان الذي أوصى المسيو دي كومنين بأن يدفن فيه ، بعد العمر الطويل العريض

وطال الحديث حتى استغرق أكثر من خمس ساعات ، فاستأذنت في الانصراف ، بعد أن شكرت للمسيو دي كومنين لطفه البالغ في إمتاع روحي وعقلي بذلك الحديث

ويهتف هذا الصديق بالسائق ليوصلني بالسيارة إلى داري ، فلا يجده ، وينادي الحارس ليصل جناحي بضع خطوات ، فيعرف أنه يرابط في ناحية نائية ، فيعلن أسفه على أن أسير وحدي في ذلك الظلام المحفوف بالحتوف ، ولكني أطمئنه فأقول : إني لا أعرف ولا أصدّق أن في الدنيا رجلاً أقوى مني ، فليجرب اللصوص حظهم في مصاولتي ، إن كان في « مصر الجديدة » لصوص غير مُراق القلوب ، وأنا قد نجوت من المعاطب الوجدانية في مصر الجديدة ، فما خوفي على جيبي وقد نجا قلبي ؟ !

كان الطريق موحشاً أعنف الإيحاش ، وكان الليل كأنه الليل !

طاخ ، طاخ ، طاخ ! ! !

وألتفت فإذا المدافع تنطلق من كل صوب ، ولم يسبقها

(١) أكتب هذه الكلمة إجابة لاقتراح الأستاذ ابراهيم والي